المبحث الثالث

وصف الصحراء

إذا كانت الصحراءُ قد فتحت في الشعر عالماً سحريًّا ، أغرى ببراءتِهِ وصفائِهِ وانبساطِهِ ووضوحِه الشعراءَ فاستلهموا منه في النسيب معاني العذوبة والنَّقاء ، فكان هذا الشعر رمزاً لعهود البراءة والهوى العذريّ ؛ فإنَّ الصحراءَ نفسهَا ، قد فتحت في الشعر عالماً سحريًّا آخر في وصفِ الرِّحلة ، تُجَسِّدُ فيه وحشةُ الظلمةِ مشاهدَ الخوف والفزع ، فَيُسمع في الفيافي عزيفُ الجنَّان ، وعواءُ الذئاب ، ودويُّ الرِّياح ، ويتراءى لنا الوحشُ يتصارع ، والكلاب تتصايح ، وينفضنا البردُ القارص ، أو يحرقنا لهيب الشمس ، ونحسُّ مع الشاعر المثقلِ قلبه بالهموم وطأةَ الليل وكآبته وكأنَّ نجومَه شُدَّت بحبال إلى جبالٍ رواسٍ ، وهكذا ننفعلُ بالصُّور الصحراويَّةِ البدويَّةِ ومشاهدها في الشِّعر الذي يصوِّرها ، في أيِّ مرحلةٍ ، وبيئةٍ ، وفي أيِّ عصر منذ ((وخرق كجوفِ العير))[1] عند امرئ القيس و ((مهمهٍ نازحٍ قفرٍ مساربُه))[2] عند الأعشى مروراً بـ[3] :

ورمـــلٍ كـــأوراكِ العـــذارى قطعتُـــه إذا جللّتـــهُ المظلمـــاتُ الحنـــادسُ

عند ذي الرُّمة ، إلى ((وخرق سحيقٍ يملأ الصدرَ وحشةً))[4]، عند ابن خفاجة وغيره من الشعراء الأندلسيين ، وقد كانت الرِّحلة عند العرب ـ ولا زالت ـ عنصراً حياتيًّا وثقافيًّا ، وصورُ الصحراء بما فيها من مشاهد بدويَّة

---

(١) ديوان امرئ القيس ، ص١٦ .

(٢) ديوان الأعشى ، ص٥٠ .

(٣) ديوان ذي الرُّمة ، ص٣٩٢ .

(٤) ديوان ابن خفاجة ، ص١٩٤ .

حضرت في الشعر الأندلسيّ بكثافةِ الصُّور البدويَّةِ الأخرى ، فـ ((شبه جزيرة الأندلس ليست كما يتصوَّر كثيرون جنَّةٌ ليسَ فيها إلاَّ السهولُ المنبسطة ، والحقولُ الخصبة ، والحدائقُ الغنَّاء ، فالحقُّ أنَّ هذا تصوُّرٌ شعري حمل عليه ما جاءَ في نتاج شعراء الطبيعةِ الأندلسيين ، ممَّن عاشوا في السهولِ الأندلسيَّةِ الممرعةِ ، ثمَّ صوَّروا لنا طبيعة تلك الأقاليم فقط ، فظننَّا أنَّ الأندلسَ كلُّها كما وصف هؤلاءِ الشعراء ، وأخذنا صورةً للبلادِ كلِّها ممَّا صوَّر به الشعراءُ بعضَ أقاليمها ، فالواقع أنَّ بلادَ الأندلس ، سهولٌ وهضاب ، وجبالٌ وأودية ، فيها الخصبُ السعيد ، وفيها الجدب الشقيّ ، فيها بقاع تستحمُّ بمياه الأنهار ، وفيها أُخرى تتعطَّشُ إلى غيثِ السماءِ))[1].

يقول ابن الخطيب عن بلدةِ (بيرة) :

((بلدةٌ صافيةُ الجوّ ، رحيبة الدوّ ، يسرحُ بها البعير ، ويجمُّ بها الشعير ، ويقصدها من مرسيه وأحوازها العير . . . قليلةُ المطر ، مقيمةٌ على الخطر . . .))[2].

ولو تصوَّرنا الأندلس كلَّها ـ كما وجدناها في معظم الشِّعر ـ جنّةً لا يعتري أهلها القحط ، ولا يهلكهم الحرُّ ، فإنَّنا لا نتصوّرُ أن الطريق الذي كان يقطعه الأندلسيُّون إلى سوى الأندلس من البلادِ كذلك ، فقد اجتازوا إلى ما أرادوا من الديار الصحارى الممتدة ، كما مرُّوا بالوديان الممرعة ، مع التسليم بواقع أنَّ الصُّور الشعريَّة لا ترتبط بالمشاهدة فقد تكون الرِّحلةُ عند الشاعرِ متخيَّلة ، يجعلُ الشاعرُ من جميع عناصرها في لوحةِ البادية مطيَّةً يركبها ليصل بها إلى ما يريدُ أن يدلَّنا عليه من مواطن الضعف أو القوَّة في النفس ، فنصُّ الرحلة الشعريَّةِ الأندلسيَّة ، اعتمدَ في معظمه على المرجعيَّة البدويَّة ، واستلهم بوعي

---

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، أحمد هيكل ، دار المعارف ، القاهرة ، ط . الثامنة ، ١٩٨٢م ، ص٢٠ .

(٢) معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، لسان الدين بن الخطيب ، ص١٠١ .

من الشاعر أو بدون وعيٍ منه الموروثَ الثقافي البدويَ الذي تشبَّعت به نفسُه وأُشربت منه روحُه .

((ذلك أنَّ العرب كانوا ينتقلون إلى أي إقليمٍ جديدٍ وفي مخيلاتهم عالمٌ مثالي ، هو ذلك العالم الذي عاش فيه آباؤهم الأقدمون ، حيث الصحراءُ والنوق ، والبان ، والكثبان ، والجآذر والآرام ، إلى آخر هذه الخطوط والألوان التي تؤلف لوحة البادية ، عالم العرب المثالي الأسطوري ، وكان أبناء العرب يعتقدون أن خير أدب هو ما كتب آباؤهم في عالمهم ذاك المثالي الأسطوري ، وأنَّ قصارى الأديب بعد ذلك أن يأتي بما يشبه نتاج هؤلاء الروّاد الأُول ، ومن هنا كانوا في الأندلس يستلهمون هذا العالم المثالي ، الذي يتخيلونه عالم آبائهم وأجدادهم ، كما كانوا يحاكون هذه النماذج التي جادت بها قرائحُ الآباء والأجداد))[1].

ولم تكن الصُّور البدويَّة للصحراء ـ التي ترددَّت في الشعر الأندلسيّ ـ كلُّها هي ذاتُ الصُّور القديمة أو مجرّدُ محاكاةٍ لها فقط .

فقد طرأ تغيير وتحويرٌ ـ أحياناً ـ في بعض عناصرها ممَّا اقتضاهُ الواقعُ المعيش ، والبيئة المختلفةُ للشاعر الأندلسيّ ، فلو سلَّمنا بأنَّ الصحارى واحدة ، فإنَّهُ يظلُّ الانفعال بالمشاهد المرئية أو المختزنةِ في الذاكرةِ مختلفاً ، وتظلُّ للشاعر قدرتُه على إلباس الصُّورة الشعريَّةِ من ذاته ، وتحوير بعضِ دلالاتها وعناصرها بما يتفق مع رؤيته .

وقد وجدنا أن الشعر الأندلسي قد استوعب صور الصحراء البدويَّة القديمة بعناصرها الكثيرة ،مع تغليبٍ واهتمامٍ بعناصرَ دون أُخرى ،أو تغييب لبعضها ، ممَّا سنعرض له في لوحات البداوة من خلال وصف الصحراء عند الشاعر الأندلسيّ .

---

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، أحمد هيكل ، ص٨٥ .

فقد وصفَ الشعراءُ الأندلسيُّون الصحراء وجاءت في الشعر بمسمياتها البدويَّةِ المتعدّدة ، فهي (تنوفة) يقول يوسُفُ الثَّالث[1] :

إذا مـــا قَطَعنـــا بـــالمطيِّ تنوفـــةً[2] وَلَجْنـــا لأُخـــرى بالجيـــادِ السَّـــوابِقِ

و(خِرقْ) ، يقول ابن جاخ الشاعر[3] :

ولربَّ خـــرقٍ[4] قـــد قطعـــتُ نياطَـــهُ والليـــلُ يرفـــلُ في ثيـــابِ حـــدادِ

بشـــملَّةٍ حَـــرفٍ كـــانَّ ذميلَهـــا سُرُحُ[5] الرِّياحِ وكـــلُّ بـــرقٍ غـــادي

و (فلاة) ، يقول ابن حمديس[6] :

ولا ترغَـــبْ بنفسِـــكَ عـــن فـــلاةٍ[7] تخـــالُ سَـــرابَ قِيعَتِهـــا[8] شَـــرابَا

و (مفازة) ، يقول ابن زُمْرُكْ[9] :

كم خُضْتُ دونكِ من غمارِ مفـــازَةٍ[10] لا تـــهـــتـــدي فيهـــا الليـــوثُ لمجـــثمِ

وإذا تجاوزنا المسميَّات التي هي من واقع المعجم البدويِّ ، وجدنا أنَّ الصحراء تجسدَّت في الشعر الأندلسيّ بأهمِّ ما كان الشعراء البدو القدماء

---

(١) ديوان يوسُفُ الثَّالث ، ص١٤٧ .

(٢) التنوفة : القفر من الأرض التي لا ماء بها من الفلوات ، ولا أنيس وإن كانت معشبة ، وهي المفازة ، انظر : اللِّسان ، مادة (تنف) .

(٣) نفح الطيب ، ٤/٢٤٤ .

(٤) الخرق : الفلاة الواسعة ، سميت بذلك لانخراقِ الريح فيها ، والجمع خروق ، انظر : اللِّسان ، مادة (خرق) .

(٥) السُّرح : الرياح المسرعة ، انظر : اللِّسان ، مادة (سرح) .

(٦) ديوان ابن حمديس ، ص١٥ .

(٧) الفلاة : المفازة ، والقفر من الأرض ؛ لأنها فُليت عن كل خير ، أي قُطعت وعُزلت ، وقيل هي التي لا ماء فيها ، وقيل هي الصحراء الواسعة ، انظر : اللِّسان ، مادة (فلا).

(٨) القيع : الأرض الواسعة السهلة المطمئنة المستوية ، لا حزونة فيها ولا ارتفاع ، انظر : اللِّسان ، مادة (قوع) .

(٩) ديوان ابن زمرك ، ص٤٨٤ .

(١٠) المفازة : واحدة المفاوز ، وهي البريَّة ، القفر ، وسميت بذلك لأنها مهلكة ، من فوَز أي هلك ، ومات ، وقيلَ سميت تفاؤلاً من الفوز النجاة ، انظر : اللِّسان ، مادة (فوز).

يصفونها به في الشعر ، وما كانت عليه من حال ، أو ما حفَّ بالمشهد الشعري من مبالغات ، وأهم هذه العناصر هي :

- وصفُ سعتها وامتدادها ، وصعوبةُ قطعها ، حتّى أنها يضلُّ بها الهادي .

-وصف قلّة الماء والطعام التي يتعرّض لها الرَّكب وهي من المهلكاتِ التي قد لا ينجو منها .

- وصف ظلمتها ووحشتها والأصوات التي يسمعها المدلج أو يتخيلها للوحش والجن .

- وصف الظلمة المطبقةِ والليل المدلهمّ .

- ووصف الحرّ ، ووهج الشمس ، ولمع السراب .

- ووصف الحيوانات فيها ، من الإبل والوحشْ وغيرها ووصف بعض تضاريسها من كثبان وجبال ، ونباتات البادية بها .

إلى ما سوى ذلك ممَّا حفل به المشهد الصحراويُّ البدويّ ؛ يقول حازم القرطاجنّي يصف اتساع الفلاةِ التي تقاذفته فيها المرتفعات والمنخفضات[1] :

وجـوزُ فـلاةٍ جبتُـهُ كلَّمـا بَـدَا ... لنـا منـه نجـدٌ أرْدَفَتـه تـهـائمُه

. . . . . .

يصـدّقُ فيـه المـرءُ قـولَ مُـزاحمٍ ... إذا ما غَـدَا بـالعيسِ وهـو مُزاحِمُـه

قطعـتُ بعـيسٍ كالسَّـفائن لم يَـزَلْ ... يلاطِمُهـا مـن مَوْجِـهِ مـا تُلاطِمُـه

ويصف ابن فرناس اتِّساعَ فلاة ، فيقول[2] :

موسـومةٌ بالبعـدِ تحسـبُ سَـهْلَها ... ألقـى السـماءُ بحولِـهِ أطنابَـا[3]

فكأنَّهـا دارٌ تقـاذَفَ صـحنُها[4] ... لم يجعـل البـاني لـهـا أبوابَـا

---

(١) ديوان حازم القرطاجنّي ، ص١١٠ .

(٢) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص١٧٧ .

(٣) الطنب : حبلُ الخباء والسرادق ، انظر : اللّسان ، مادة (طنب) .

(٤) الصحن : ساحة وسط الفلاة ونحوهما من متون الأرض ، وسعة بطرنها ، انظر : اللّسان ، مادة (صحن).

وقد وصف يوسف بن هارون هذه الصحراء بأنّها لا نهايةَ لها ، فهي تتقاذف الرَّكب فتفضي بهم من مفازةٍ إلى أخرى ، وقد شبّه هذا الطول والامتداد بليلِ عاشقٍ جفاه من يحبُّ ، وهو تشبيه نظر فيه لقول المتنبّي[1] :

ويـــومٍ كليـــلِ العاشـــقين كمنتُـــه أراقبُ فيـــه الشـــمس أيّـــانَ تغـــربُ

يقول يوسُف بن هارون[2] :

وركـــبٍ إذا قطعـــوا نفنفـــاً[3] رمـــى بـــهـــمُ البعـــدُ في نفنـــفِ

كـــأنَّ الفيـــافي[4] في طُولِهـــا ليـــالٍ علـــى عاشـــقٍ قـــد جُفِـــي

ومن قصيدةٍ لابن حمديس تغزَّل فيها ووصف عزمه على اجتياز البيدِ الواسعةِ ، فشبَّه هذا العزم القويَّ في نفسِه بغليان النّار واحتدامها ، حتّى يشوي هذا الغليان بردَ الرياح بصرصرها ، وهي غايةٌ نفسيَّة يردِّدها الشعراء في وصف الرحلة وتعطي في الشعر وبين ثنايا القصيد معنى أبعدَ من وصفِ رحلةٍ وصحراءَ ؛ وهذا المعنى يتلَّخص في التغنّي بقوَّة النفسِ وجسارتها وقدرتها على اجتياز الصعب ، وتسلُّحها في ذلك بالعزم والهمَّةِ والإرادة ، يقول ابن حمديس[5] :

ومَـــرْتٍ[6] يطـــول سَـــفْرَهُ[7] بنفـــاذه أتـــيحَ لـــه مســـتنجدٌ باعتزامـــه

إذا صرصرُ الأرواحِ[8] أغشتهُ صـــرَّهَا[9] شوى الوجهَ منها حَـــرُّه باحتدامـــه[10]

---

(١) ديوان المتنبي ، ٣٠٣/١ .

(٢) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص١٧٦ .

(٣) نفنف : المفازة ، انظر : اللّسان ، مادة (نفنف) .

(٤) الفيافي : الفيف والفيفاة ، المفازة التي لا ماء فيها ، انظر : اللّسان ، مادة (فيف) .

(٥) ديوان ابن حمديس ، ص٤٣٠ .

(٦) المرت : المفازة لا نبات فيها ، انظر : اللّسان ، مادة (مرت) .

(٧) سَفْرَه : قطع المسافة ، انظر : اللّسان ، مادة (سفر) .

(٨) صرصر الأرواح : ريحٌ صرصر شديدة البرد ، انظر : اللّسان ، مادة (صرر) .

(٩) صرّه : جمعها وشدّها ، انظر : اللّسان ، مادة (صرر) .

(١٠) احتدامه : غليانه ، وهو من احتدام النار أي التهابها وشدَّة حرِّها ، انظر : اللّسان ، مادة (حدم) .

وقد أضاف بعضُ الشعراء إلى صفتي الاتِّساع والامتداد الصحراويّ ، وصفها بالمضلَّة ، وهي أن يضلَّ الرَّكب فيها فلا يهتدون إلى الطريق فيها إلاَّ بالظنّ ، يقول يوسف بن هارون الرَّمادي[1] :

وبـــهماءَ[2] مثلَ البحرِ خرقاءَ[3] لا تَرى سبيلاً بـــهـــا يهدي فبـــالظنِّ يُهتـــدى

وقد أشبعَ شاعرٌ آخر صفة التِّيه والضلال الذي يكتنفُ الصحراء ، فقد تساوى ليلها وظلامها في انطماس المعالم ، وتاهت صغارُ الوحش وغيرها عن أمهاتها ، وتركت فيها الطيرُ أفراخَها ، فهي هَوْلٌ لا يقطعُه إلاّ صاحبُ عزمٍ قويٍّ وسيفٍ نافذ ، يقول المهنَّد[4] :

وطامسةٍ[5] الأعـــلامِ[6] ســـيَّانَ وسْـــطَها منيرُ الضُّحى ومُظلمُ الأفـــقِ حالـــكُ[7]

تضلُّ بـــهـــا الأطلاءُ[8] عن أمَّهاتـــهـــا وتَتْركُ لَغْواً[9] في ذَرَاها[10] التَرائـــكُ[11]

---

(١) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص١٧٦ .

(٢) بهماء : طريق مبهم ، إذا كان خفيًّا لا يستبين ، انظر : اللّسان ، مادة (بهم) .

(٣) خرقاء : الخرق ، الفلاة الواسعة ، سُميت بذلك لانخراق الريح فيها ، وكل بلدٍ واسع تتخرق به الرياح فهو خرق ، انظر : اللّسان ، مادة (خرق) .

(٤) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص١٧٤ .

(٥) طامسة : غطّاها التراب فلا تُرى ولا تتبين من بعد ، وهي بعيدةٌ لا مسلك فيها ، والطموس : الدروس والانمحاء ، انظر : اللّسان ، مادة (طمس) .

(٦) الأعلام : واحدها علم ، وهو ما يُجعل علامة على الطرق والحدود ، وهو شيء ينصبُ في الفلوات تهتدي به الضالة ، انظر : اللّسان ، مادة (علم) .

(٧) حالك : شديد السواد ، انظر : اللّسان ، مادة (حلك) .

(٨) الأطلاء : من أولاد الناس والبهائم والوحش ، من حين يولد إلى أن يشدَّ ، انظر : اللّسان ، مادة (طلي) .

(٩) لغواً : سقطاً لا يُعتدُّ بها ، انظر : اللّسان ، مادة (لغا).

(١٠) الذُّرى : ما كنَّ من الريح الباردة من حائط أو شجر ، انظر : اللّسان ، مادة (ذرا).

(١١) التريكةُ : البيضة بعدما يخرج منها الفرخ ، وخص بها بعضهم بيض النعام ، انظر : اللّسان ، مادة (ترك).

صحبتْ بـــهـــا عَزْماً وعَضْباً[1] كلاهُمَا رَكـــوبٌ لأهـــوالِ المفـــاوزِ ســـادكُ[2]

ووصف الصحراء بطموس الأعلام ودروسها ، قـديـمٌ فـي الشـعـر ، يـقـول ذو الرُّمة[3] :

ومهمهٍ طامسِ الأعلامِ في صخبِ الـــ أصـــداءِ مختـــلطٍ بـــالترب ديجـــوجِ[4]

ويأتي هذا الوصف أيضاً عند لسان الدين بن الخطيب في قصيدةٍ ذكر فيها الحادي ، والتعريس ، وحبس الركب ، وحاجر ، والعذيب وبارق ، وجانب الحمى ، وسليمى ، ووصف البيد[5] ، ثم قال ابن الخطيب في هذه القصيدة ، يصف وحشة الصحراء ، وضلَّة الرَّكب ، وخبطهم فيها على غير هدى ، وشدّة التعب والجهد[6] :

وقفـــراءَ[7] أمّـــا ركبـــها فمضـــلِّلٌ وَمربعُها مـــن آنـــسٍ غـــير مـــأنوسِ[8]

خبطنا[9] بـــها من هضبةٍ[10] لقرارةٍ[11] ضلالاً ، وملنا من كناسٍ[12] إلى خيسِ[13]

---

(١) العضب : السيف القاطع ، انظر : اللّسان ، مادة (عضب).

(٢) سادك : مولع ، انظر : اللّسان ، مادة (سدك) .

(٣) ديوان ذي الرُّمة ، ص٣٤٤ .

(٤) ديجوج : أسود ، انظر : اللّسان ، مادة (دجا) .

(٦،٥) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٧٢٩/٢ .

(٧) قفراء : أرض خلاء وهي المفازة التي لا نبات بها ولا ماء ، انظر : اللّسان ، مادة (قفر).

(٨) مأنوس : الأنس ، خلاف الوحشة ، انظر : اللّسان ، مادة (أنس).

(٩) خبطنا : سرنا على غير هدى ، انظر : اللّسان ، مادة (خبط) .

(١٠) الهضبة : الجبل المنبسط على الأرض والهضبة الرابية ، انظر : اللّسان ، مادة (هضب).

(١١) القرارة : الأرض المستوية ، انظر : اللّسان ، مادة (قرر) .

(١٢) الكناس : مولج الوحش من الظباء ، انظر : اللّسان ، مادة (كنس) .

(١٣) الخيس : موضع الأسد ، انظر : اللّسان ، مادة (خيس) .

إذا ما نهضنا عن مقيلِ[1] غزالةٍ نزلنا فعرَّسنا[2] بساحةِ عِرِّيسِ[3]
أدرنا بها كأساً دِهاقاً من السُّرى أُملنا بها عند الصَّباح من الرُّوسِ

ويأتي ابن زمرك في هذا الوصف للضلال في المفازة ، بموروثٍ بدويٍّ مُتعارفٍ عليه وهو : ((أنَّ القطا أهدى الطير ، وأن الذئب أهدى السباع ، وهما السابقان إلى المياه ، لذلك وصفهما الشعراء وضربوا الأمثال بهما ...))[4].

حتّى ورد في الشعر قولهم : أهدى من القطا ، يقول الشاعر الطرمّاح الأموي ، هاجياً[5] :

تميمٌ بِطُرقِ اللؤمِ أهدَى من القَطَا ولو سَلَكَتْ طُرق المكارِمِ ضلَّتِ

يقول ابن زُمْرُك[6] :

كم خضتُ دونكِ من مفازٍ لو سَرَت فيه القطاةُ لضلَّ عنها المنهلُ
متوشِّحاً برقاً إذا جرَّدتُهُ من غِمدِه مدَّ الغديرَ[7] الجدولُ[8]
ومضى نجاشيٌّ[9] الظلامِ وفوقَه للبدرِ تاجٌ بالنجومِ مكلَّلُ

---

(١) المقيل : الاستراحة نصف النهار ، وإن لم يكن معها نوم ، انظر : اللِّسان ، مادة (قيل).
(٢) عرّسنا : التعريس نزول القوم في السفر آخر الليل للاستراحة ، وهو نوم خفيف ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرس) .
(٣) عرّيس : مأوى الأسد ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرس) .
(٤) شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي ، ١٢٧٤/٤ .
(٥) ديوان الطرمَّاح ، تحقيق : دكتورة عزّة حسن ، دار الشرق العربي ، سورية ، ط . الثانية ، ص٧٤ .
(٦) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٢٨١ .
(٧) الغدير : مستنقعُ ماء المطر ، صغيراً أم كبيراً ، والغدير : السيف ، انظر : اللِّسان ، مادة (غدر) .
(٨) الجدول : النهر الصغير ، انظر : اللِّسان ، مادة (جدل) .
(٩) النجاشيُّ : كلمة للحبش ، تُسَمَّى به ملوكها ، انظر : اللِّسان ، مادة (نجش) .

وتشبيه الليل في سواده ، والنجوم تكلّله ، بالنجاشيّ الذي يلبس التاج ، تشبيهٌ غير بدوي ، لم يرد ـ على الأغلب ـ في الصّور البدويَّة التي تناولت وصف الليل .

ويأتي لسان الدين بن الخطيب في قصيدة من تسعةِ أبيات ، جاء ـ في معظمها ـ بوصفٍ حيٍّ لجماعةٍ اقتحموا الصحراء ، وسروا في الليلِ ، وقد تعرَّض هذا الرَّكبُ لمهلكاتٍ شتَّى ؛ فمنهم من نجا ، ومنهم من هلك ، وقسَّمهم في الصُّورةِ إلى فرقٍ أو جماعاتٍ ، بطشت السباعُ بالبعض ، وأهلك العطش البعض ، كما تقطَّعت الأسبابُ بفرقةٍ فتاهوا عن ديارهم ، ولم ينجُ منهم سوى القليل ، الذين اهتدوا بالدليل ، والشَّاعرُ في هذه الصورة ، يتَّخذُ دور الناقلِ للحركة في المشهدِ البدويّ الذي حاولَ أن يُلمَّ فيه بعناصر الهلاكِ في الصحراء ، دون أن يكون مشاركاً في هذا المشهد . يقول[1] :

نـهضُوا وقد جنَّ[2] الدُّجى[3] وتخالفَـتْ ... سُـبُلُ الـرَّدى فمسـدِّدونَ وضُـلَّلُ

سلني عـن المنبـتِّ[4] حـين تقطَّعـتْ ... أسـبابُهُ تيهـاً ولا مـن يسـألُ

قومٌ سَطَت[5] بـهـمُ السباعُ ، وفرقـةٌ ... عَطِشُوا ، وأينَ مـن الظَّمـاء المنـهلُ؟

لَفَـح الهجـيرُ وجـوهَهم بسـعيره ... فتـهافتُوا بِبُلالـةٍ[6] وتعلَّلـوُا

وجماعـةٌ ركبـوا المفـازةَ دائمـاً ... عثـروا علـى أثـرٍ فشـطَّ المـزلُ

وركائـبٌ جعلـوا الـدليلَ أمـامَهُم ... وسَـرَوْا ففـازُوا بالَّـذي قـد أمَّلُـوا

ويأتي في آخر المشهد ببيتين ، ركَّز فيهما الصُّورة التي فصَّلَها فيما سبق ، وأوجز ما أسهبَ فيه من قبل ، يقول[7] :

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٥١١ .

(٢) جنّ : جنُّ الليل ظلمته ، وشدة سواده ، انظر : اللِّسان ، مادة (جنن) .

(٣) الدُّجا : سواد الليل ، انظر : اللِّسان ، مادة (دجا) .

(٤) المنبتّ : المنقطع به ، انظر : اللِّسان ، مادة (بتت) .

(٥) سطت : بطشت ، انظر : اللِّسان ، مادة (سطا) .

(٦) البلالة : ما يُبَل به الحلق من الماء واللبن ، انظر : اللِّسان ، مادة (بلل) .

(٧) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٥١١ .

والليلُ متلفةٌ[1] ، ومدرجةُ الهوى لا يستقلُّ[2] بها المطيُّ الذُّلَّلَ
والواصلون همُ القليلُ وكيف لا؟ قفرٌ ومسبعةٌ[3] وليلٌ أليلُ

وقد أكثر الشُّعراءُ الأندلسيُّون من وصف الظلمةِ المطبقةِ في الليل المدلهمِّ المُضلِّ ، ووصف الحرّ الخانق القاتل ، ووهج الشمس المحرق ، يقول ابن خفاجة[4] :

ومفازةٍ لا نجمَ في ظلمائها يسري ولا فلكٌ بها دوّارُ
تتلهَّبُ الشِّعْرى[5] بها وكأنّها في كفِّ زنجيِّ الدُّجى دينارُ
ترمي بها الغيطانُ[6] فيها والرُّبى دولاً كما يتموَّجُ التيَّارُ

والشّعرى في قوله (تتلّهبُ الشّعرى) كوكبٌ لا يطلع إلاّ في شدّة الحر ، ورد ذكره كثيراً في الشّعر القديم ، في وصف شدّة الحرّ ، يقول الشنفرى الأزدي[7]:

ويومٍ من الشِّعرى يذوبُ لوابُهُ أفاعيهِ في رمضائِهِ تتململُ

---

(١) المتلفة : المهلكة ، انظر : اللّسان ، مادة (تلف) .
(٢) يستقلّ : استقلّ القومُ ذهبوا واحتملوا سارين ، وارتحلوا ، انظر : اللّسان ، مادة (قلل).
(٣) مسبعةٌ : كثيرةُ السباع ، انظر : اللّسان ، مادة (سبع) .
(٤) ديوان ابن خفاجة ، ص٨٥ .
(٥) الشعرى : كوكبٌ نيّر يقال له المِرزم يطلع بعد الجوزاء ، وطلوعه في شدّة الحر ، انظر : اللّسان ، مادة (شعر) .
(٦) الغيطان : الواحد منها غائط ، وهو المطمئن من الأرض ، انظر : اللّسان ، مادة (غوط) .
(٧) شعر الشنفرى الأزدي ، لأبي فيد مؤرج بن عمر السدوسي ، تحقيق : دكتور علي ناصر غالب ، راجعه دكتور عبد العزيز المانع ، دار اليمامة ، الرياض ، ط . الأولى ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م ، ص٨٦ .
ويعلّق الشارح على البيت بأنه ((يذوبُ لوابُه من شدّة الحرّ ، ولواب الحرّ ، ولعاب الشمس واحد ، وهو شيءٌ تراه في الهاجرة ، كأنّه الإبريسم الأبيض ينحدر من السماء إلى الأرض من شدّة الحر)) ، انظر : الهامش ، ص٨٧ .

والشنفرى جعل للشَّعرى لَواباً أو لعاباً يقطر من شدّة الحرّ ، أمّا ابن خفاجة فقد وصف النجم بالتلُّهب ، وشبَّه توقدّه في الليل بدينار في كفّ زنجيٍّ والتشبيه بالزنجي غير بدويّ ، وهو قريبٌ من تشبيه ابن زمرك السابق للّيل ونجومه بالنجاشي المُتوّج[1].

وقد يكتفي الشَّاعر الأندلسيُّ بالتقاطِ بعض الجزئيات من المشهد البدوي للصحراء ، ويكثّف الوصف فيها ، فابن حمديس أخذ من المشهد منظر السراب وشدّة القيظ ، يقول[2] :

ومهمهٍ متّصلٍ بمهمهٍ ... مَرْتٍ[3] بموّاجِ السَّرابِ مُترعُ[4]
كأنّ منشورَ المَلاءِ فوقهُ ... متى تمل ذُكاءُ[5] عنه تُرفعُ

فهنا شبَّه السَّراب بالموج ، وأشبعَ الصفة بقوله مُترع ، ثم شبهه بالمُلاء الذي يُنشَر تحت الشمس ويُرفع عندما تميلُ عنه ، وتشبيه السرابِ بالملاءِ قديمٌ في الشعر ، يقولُ امرؤ القيس[6] :

تقطّعُ غيطاناً كأنّ متونها ... إذا أظهرتْ تكسى مُلاءً منشّرا

ويقول ذو الرَّمة[7] :

إذا تنازعَ حالا مَجهلٍ قذفٍ[8] ... أطرافَ مطّردٍ[9] بالحرّ منسوجِ
تلوي الثنايا بأحقيها[10] حواشيه ... لِيَّ المُلاءِ بأبواب التفاريجِ

---

(١) ديوان ابن زُمْرُكْ ، ص٢٨١ .
ومضى نجاشي الظلام وفوقهُ ... للبدر تاجٌ بالنجومِ مكلّلُ

(٢) ديوان ابن حمديس ، ص٣٠١ .
(٣) المرت : المفازة لا نبات فيها ، انظر : اللّسان ، مادة (مرت).
(٤) مُترع : ممتلئ ، انظر : اللّسان ، مادة (ترع) .
(٥) ذكاء : اسم الشمس ، انظر : اللّسان ، مادة (ذكا).
(٦) ديوان امرئ القيس ، ص٩٥ .
(٧) ديوان ذي الرُّمة ، ص٣٤٥ .
(٨) قذفٍ : فلاة قذف بعيدةٍ تقاذف بمن يسلكها ، انظر : اللّسان ، مادة (قذف).
(٩) مطرّد : يعني السراب ، انظر : اللّسان ، مادة (طرد).
(١٠) أحقيها : حقي الأرض سفوحها وأسنادها ، انظر : اللّسان ، مادة (حقا).

ويضيفُ ابن حمديس إلى وصف السراب ، وصف شدّةِ القيظ الذي يُسمع فيه صوتُ الجندب المشابهِ للغناء ، ((والجندب : الذكر من الجراد ... والجندب إذا رَمِضَ في شدَّةِ الحرّ لم يقرَّ على الأرض وطارَ فتسمع لرجليه صريراً))[1].

يقول ابن حمديس[2]:

كأنّمـــا جندبُـــهُ مُرجِّـــعٌ نغمـــةَ شـــادٍ ذي لحـــونٍ مســـمعِ

وقد ذُكر صريرُ الجندب في الشعر الجاهلي يقول بشر بن أبي خازم[3]:

أرمي بـــهـــا الفلـــواتِ ضـــامزةً[4] إذا سمع الجـــدُّ بـــهـــا صـــريرَ الجُنـــدبِ

والجندب عناه ذو الرُّمة بقوله[5]:

كأنَّ رجليـــهِ رجـــلا مقطـــفٍ عجـــلٍ إذا تجـــاوبَ مـــن بُرديـــه تـــرنيمُ

إذ ((يكون في النهار ساعات ترى الشخص الصغير في تلك المهامةِ عظيماً ، ويوجدُ الصوتُ الخافضُ رفيعاً ، ويُسمع الصوت الذي ليسَ بالرَّفيع مع انبساطِ الشمس غدوةً من المكان البعيد ، ويوجَدُ لأوساط الفيافي ، والقفار ، والرِّمال ، والحرار ، في أنصافِ النَّهار مثل الدويِّ من طبع ذلك الوقت ، وذلك المكان ، عندما يعرض له ، ولذلك قال ذو الرُّمة :

إذا قـــال حادينـــا لتشـــبيهِ نبـــأةٍ صـــهٍ لم يكـــن إلاّ دويُّ المســـامعِ))[6]

---

(١) انظر : اللّسان ، مادة (جدب) .
وفي الأمثال ((وقعوا في أم جندب)) يُضربُ لمن وقع في ظلمٍ وشر ، وجندب ، اسم للجراد ، وأمّه الرمل ، لأنه يرمي بيضه فيه ، والماشي في الرمل واقعٌ في الشدّة .
انظر : مجمع الأمثال الميداني ، ص٣٦٠ .

(٢) ديوان ابن حمديس ، ص٣١٠ .

(٣) ديوان بشر بن أبي حازم ، ص٦١ .

(٤) ضامزةً : لا يُسمع لها رُغاء ، انظر : اللّسان ، مادة (ضمز) .

(٥) ديوان ذو الرُّمة ، ص١٤٨ .

(٦) الحيوان ، الجاحظ ، ٢٤٨/٦ .

ويكمل ابن حمديس وصفه للقيظ المحرق ، فهو يذيبُ الصخر ، ويقتلُ الشديدَ القويَّ ، ويشوي الضفادع ، يقول[1]:

يـذيبُ صـمَّ الصـخر حـرٌّ لاذعٌ ... يقـبضُ فيـه روحَ كـلِّ زعـزعِ[2]

لكـلِّ غـارٍ[3] فيـه مـاءٌ وشَـوَى ... فيـه أوارٌ[4] الشـمسِ كـلَّ ضـفدعِ

وفي قصيدةٍ أخرى ، يصفُ ابن حمديس حرّ الصحراءِ اللاذع الذي صوّره في القصيدة السابقة ، ويسلك في هذا التصوير مسلكاً آخر ، يصف فيه توقّد الرمل من شدَّة حر الشمس حتّى شابه نار جهنَّم ، وشوى بحرِّه ثور الوحش ، فارتفع صوتُ الضراعةِ منه ، ارتفاع صوتِ أصحاب الذنوب الذين يُعذَّبون بالنَّار ، وهي صورةٌ قرآنية استقاها الشاعر في بيانِهِ عن شدّة الحرّ ، وأكمل القصيدة بأن جعل العَرقَ الجاري على جسدِ هذا الثور ، ماءً حاراً يُصبُّ عليه ، يقول[5] :

إذا الشمس أحمت فيحَها[6] خلتَ رملَهـا ... رمـاداً وقـودُ النَّـارِ فيـه قريـبُ

ترى رامـحَ[7] الرَّمضـاءِ فيـه كأنَّـهُ ... مُواقـعٌ نـارٍ واقعتُـهُ ذنـوبُ

كأنَّ ارتفـاعَ الصَّـوتِ منـه تضـرُّعٌ ... إذا لـذعَ الأحشـاءَ منـهُ لهيـبُ

وتحسـبُ أنَّ القفـرَ حُـمَّ[8] فمـاؤُهُ ... مـن العَـرقِ الجـارِي عليـه صـبيبُ

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٣٠١ .

(٢) زعزع : شديد ، انظر : اللِّسان ، مادة (زعع) .

(٣) الغار : الكهف في الجبل ، وكل مطمئن من الأرض (غار) ، انظر : اللِّسان ، مادة (غور) .

(٤) الأوار : الحرّ ، وهي مقلوبة ، انظر : اللِّسان ، مادة (وأر) .

(٥) ديوان ابن حمديس ، ص٣٩ .

(٦) الفيح : شدّة القيظ من فيح جهنَّم ، انظر : اللِّسان ، مادة (فيح) .

(٧) رامح : يقال للثورِ من الوحش ، رامح : قال ذو الرُّمة :

وكـائن ذعرنـا مـن مهـاة ورامـح ... بـلادُ العـدى ليسـت لـه بـبلاد

انظر : اللِّسان ، مادة (رمح)

(٨) حُمَّ : سخن ، والحميم الماء الحار ، انظر : اللِّسان ، مادة (حمم) .

والملاحَظُ في شعر ابن حمديس التفاتُه إلى دقائق الصُّورة ، وتفصيلُه لجزئياتها ، ممّا وجدناه هنا ، وسنجده أيضاً ـ بإذن الله ـ في الأوصافِ التالية ، للحيوان ، أو الماء الآجن أو غيره . . .

وهذا الاهتمام بالتفاصيل ، والاعتناء بإشباع الوصف الصحراويّ ، والدِّقة في التصوير ، قد يرجع إلى أنَّ ابن حمديس كان مرتحلاً مغترباً ، عانى مشقّة السفر ، ومرارة الارتحال ، الأمر الذي دلَّ عليه كثيرٌ من شعره[1] ، وأوردنا أمثلةً منه ، وهذا ـ على الأغلب ـ ما جعل الصورة عنده ، فيها رصدٌ لدقائقَ وتفاصيلَ أضافَ إليها من ثقافته التي غُذِّيت على الموروث القديم ، فجاء الشعر عنده بدويَّ الصُّور .

فقد رَصَدَ ابن حمديس في وصف الصحراء ، صورةَ الرَّكب الذين أشرفُوا على الهلاك عطشاً ، فوردوا منهلاً آسناً اجتمع ماؤه ، وهو ماءٌ آجنٌ علتُه الخضرةُ أو الطحلبُ ، فجعلوا لشدَّة العطش يزيحون طُحلبَهُ عن وجه الماء ، حتّى بدا من تحتهِ كنورٍ لاح بعد ظلام ، يقول[2] :

يبلُّ صدى[3] الأرماقِ[4] في القيظِ ركبُهُ ... بمُلْتَقَطٍ[5] يُثني القطا عن جمامِهِ[6]

تمزَّقُ عنه الكفُّ جلبابَ عرمضٍ[7] ... فيبدو كنورِ الصُّبح تحت ظلامِهِ

---

(١) انظر : مقدمة ديوان ابن حمديس ، لإحسان عبَّاس ، ص٤، والشعر العربي في صقليّة ، دكتور فوزي عيسى ، ص٣٠٩ .

(٢) ديوان ابن حمديس ، ص٤٣١ .

(٣) الصدى : شدّة العطش ، انظر : اللّسان ، مادة (صدي) .

(٤) الأرماق : بقية الرمق ، بقية الحياة ، انظر : اللّسان ، مادة (رمق) .

(٥) بملتقط : الملتقط المنهل ، ومن المجاز التقطنا منهلاً وكلأ ، ووردناه التقاطاً ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٢/٣٥٠ ، مادة (لقط) .

(٦) الجمّ : المكان الذي يجتمع فيه ماؤه ، انظر : اللّسان ، مادة (جمم) .

(٧) العرمض : الخضرة على الماء والطحلب الذي يكون كأنه نسجُ العنكبوت ، انظر : اللّسان ، مادة (عرمض) .

وصورة ورود المياهِ الآجنةِ في الصحراء ، قديمة في الشعر ، يقول امرؤ القيس[١] :

تيمَّمتِ العينَ التي عندَ ضَارِجٍ يفيءُ عليها الظلَّ عرمضُها طامي

وجاءت أيضا بتفصيل أكثر عند ذي الرُّمة ، يقول[٢] :

وماءٍ كماءِ السُّخدِ[٣] ليسَ لجوفِهِ سِوَاءَ الحمامِ الوُرْقِ[٤] عهدٌ بحاضرِ

صَرَى[٥] آجِنٌ[٦] يزوي[٧] له المرءُ وجهَهُ ولو ذاقهُ الظمآنُ في شهرِ ناجرِ[٨]

فذو الرُّمة وصف الماء الآجِنَ القديم الذي لم يَردْه سوى الطير ، ووصف ورودَ الرَّكب عليه وتقزُّزهم منه لِمَا وجدوه في طعمه من التغيُّر .

أمَّا ابن حمديس فقد جعل الطَّير تنثني عنه وتعافُه ، وتجاوزَ وصف الطعم المتغيّر ، إلى وصفِ إشراق الماءِ كنورِ الصَّباحِ في نفوسِ العطاش الصَّادين ، فأضاف ابن حمديس إلى الصُّورة ، وصف الحالةِ النفسيَّةِ للرَّكب الذين أشرفوا على الهلاكِ فلم ينظروا للَّون ، ولم يكترثوا لتغيُّر الطعم .

وقد اختلفت الصُّورة عند ابن درّاج ، فقد اقتصر فيها على وصفِ تحلُّق أسراب القطا حول الماء الذي اهتدوا إليه بعد خمسِ ليالٍ أوشكوا فيها على الهلاك ، فارتووا ثم واصلوا الرحلة على مطاياهم التي يبست من العطش وأصبحت أنقاضاً شديدة الهزال ، يقول[٩] :

---

(١) ديوان امرئ القيس ، ص١٥٥ .

(٢) ديوان ذي الرُّمة ، ص٥٦٤ .

(٣) السخد : الماء الغليظ الأصفر الذي يخرج مع الولدِ ، انظر : اللِّسان ، مادة (سخد).

(٤) الورق : الخضرة إلى سواد ، انظر : اللِّسان ، مادة (ورق) .

(٥) صرى : الصرى الماء الذي طال مكثه ، وتغير ، انظر : اللِّسان ، مادة (صرى) .

(٦) الآجن : الماء المتغير الطعم واللَّون ، انظر : اللِّسان ، مادة (أجن) .

(٧) يزوي : يقبض ، انظر : اللِّسان ، مادة (زوي) .

(٨) شهر ناجر : شهر شديد الحر ، قيل رجب ، وقيل صفر ، وقيل كل شهر من شهور الصيف ناجر ، انظر : اللِّسان ، مادة (نجر) .

(٩) ديوان ابن درّاج ، ص٨٤ .

وموحشةِ الأقطارِ طامٍ[1] جمامُها[2] مَريشٌ بآسرابِ القَطَا رَجواها[3]
أهلَّ إليها بعد خمسٍ دليلُنا فعجنا صدورَ العيسِ نحو جَبَاها[4]
تُغيثُ بقايا من نفوسٍ كأنّها بقايا نجومِ القذفِ[5] غارَ سَنَاها
وقُمنا إلى أنقاضِ سَفْرٍ[6] كأنّها وقد رَحَلَتْ شطراً[7] شطورَ[8] بُرَاها[9]

فابن درّاج لم يتوغّل كابن حمديس في دقائق صورة الماء الآجن ، واكتفى بوصف تحلّق القطا عليه .

وقد خصّ بعض الشعراء الأندلسيين السراب بالوصف ، في الصّورة البدويّة ، واستمدُّوا من صورة البحرِ كثيراً من تشبيهاتهم ، وهو منحًى قديمٌ في الشعر ، درج فيه أصحابه على تشبيه الصحراء والآل بالبحر ، والإبلَ بالسفائن وما إلى ذلك ، ومنه قول ذي الرُّمة[10] :

ترى قُورَها[11] يغرقن في الآلِ مرّةً وآونةً يخرجنَ من غامرٍ[12] ضحْلِ[13]

---

(١) طامٍ : عالٍ ومرتفع ، انظر : اللّسان ، مادة (طما) .
(٢) الجمام : جمع جمّة ، وهو المكان الذي يجتمع فيه ماؤه ، والجمّ من الماء معظمه ، انظر : اللّسان ، مادة (جمم) ، وقد أراد هنا تشبيه الصحراء بالبحر عالي الموج .
(٣) رجواها : الرَّجا ناحية كلّ شيء ، وخصَّ بعضهم به ناحية البئر ، من أعلاها إلى أسفلها وحافّتيها ، وكل ناحيةٍ رجا ، انظر : اللّسان ، مادة (رجا) .
(٤) جباها : جبه الماء وَرَدَه وليست عليه أداة للاستقاء ، انظر : اللّسان ، مادة (جبه).
(٥) نجوم القذف : النجوم التي يرمى بها ، انظر : اللّسان ، مادة (قذف) .
(٦) السّفر : الأثر يبقى على جلد الإنسان ، وأسفرت الإبل إذا ذهبت في الأرض ، انظر : اللّسان ، مادة (سفر) .
(٧) الشطر : النصف ، انظر : اللّسان ، مادة (شطر) .
(٨) شطور : الشطور من الإبل التي يبس خلفان من أخلافها لأن لها أربعة أخلاف ، انظر : اللّسان ، مادة (شطر) .
(٩) البُرى : جمع برة وهي الحلقة تُجعلُ في أنفِ البعير ، انظر : اللّسان ، مادة (بري).
(١٠) ديوان ذي الرُّمة ، ص٥٩ .
(١١) القور : جمع قارة ، وهو الجبل الصغير ، انظر : اللّسان ، مادة (قور) .
(١٢) غامر : غمره علاه وغطّاه ، انظر : اللّسان ، مادة (غمر) .
(١٣) الضحل : الماء الرقيق علا وجه الأرض ليس له عمق ، انظر : اللّسان ، مادة (ضحل).

((أي من سرابِ غمرها وعلاها)) [١]، وقد أكثر الشعراءُ الأندلسيُّون كغيرهم من استرفادِ هذه الصورة البدويَّة المتوارثة ، فشبهوا السراب بالبحر الذي يحمل السفن ، يقول أحمد بن عبد العزيز[٢] :

أشبههم والآلُ يزهى[٣] حمولَهم سفائنُ في البحرِ الخِضمِّ[٤] جَواريا

ويقول عبَّاس بن ناصح[٥] :

تعومُ أحداجُهُمْ في الآلِ رافعةً عَوْمَ السفائنِ تُزْجيها[٦] نَواتيها[٧]

وله أيضاً[٨] :

قطعتُ بها خرْقاً كأنِّي وآلَهُ أمامي وخَلْفي راكبٌ لجَّةَ البحرِ

وشبَّهوا السراب أيضاً بزبدِ البحر ، يقول يوسُفُ بن هارون[٩] :

تراهَا بغيرِ الآلِ كالبحرِ ساكناً فإن كان آلُ خلتَها البحرَ مزبدَا

وشبَّهوه بالحادي الذي يحدو الإبل ، يقول عبَّاس بن فرناس[١٠] :

يفلقن[١١] لجَّةَ[١٢] آلِهِ فأمَامَها حادٍ وآخرُ خَلْفَها لم يُلحَقِ

فكأنَّ ذا موسى وذاك بإثرِهِ فرعونُ إلاَّ أنَّهُ لم يغرقِ

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (غمر) .

(٢) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص١٧٨ .

(٣) يزهى : يرفع ، انظر : اللِّسان ، مادة (زها) .

(٤) الخضمّ : البحر لكثرة مائه وخيره ، انظر : اللِّسان ، مادة (خضم).

(٥) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص١٧٧ .

(٦) تزجيهَا : تسوقها وتدفعها ، انظر : اللِّسان ، مادة (زجا) .

(٧) نواتيها : النوتي الملاَّح الذي يدبّر السفينة في البحر ، انظر : اللِّسان ، مادة (نوت).

(٨) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص١٧٧ .

(٩) المصدر السَّابق ، ص١٧٨ .

(١٠) المصدر السَّابق ، ص١٧٧ .

(١١) يفلقن : الفلق : الشقّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (فلق) .

(١٢) لجّة البحر : الماء الكثير الذي لا يرى طرفاه ، انظر : اللِّسان ، مادة (لجج) .

والبيت الأوّل نظر فيه إلى قول ذي الرُّمة[1] :

بخوصٍ من استعراضها البيدَ كلّما حدا[2] الآلُ حدُّ[3] الشمس فوق الأصالفِ[4]

وذو الرُّمة جعل الآل محدُّوا حداهُ حرُّ الشمس ، أما ابن فارس ، فحوَّر قليلاً بأن جعل السراب حادياً للإبل ، وأضاف التشبيه الديني المستلهم من قصَّةِ موسى عليه السلام .

ونظر إلى صورة السَّراب في شعر ذي الرُّمة شاعر أندلسيٌّ آخر وهو ابن هذيل ، وذلك في قول ذي الرُّمة[5] :

وخرقٍ إذا الآل استحارت[6] نهاؤه[7] به لم يكد في جَوْزه السيرُ ينجعُ[8]

قطعتُ ورقراقُ السَّرابِ[9] كأنّه سبائبُ[10] في أرجائه تتريَّعُ[11]

وقد ألبسَ الآلُ الاياديَ[12] وارتقى على كلّ نشزٍ[13] من حوافيه مِقْنَعُ[14]

---

(١) ديوان ذي الرُّمة ، ص٥٥٢ .

(٢) حدا الإبل : زجرها خلفها وساقها انظر : اللِّسان ، مادة (حدا).

(٣) حدُّ الشمس : أي وقت حرّ الشمس ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ١٥٨/١ ، مادة (حدد) .

(٤) الأصالف : جمع أصلف ، وهو ما اشتدَّ من الأرض وصلب ، انظر : اللِّسان ، مادة (صلت) .

(٥) ديوان ذي الرُّمة ، ص٢٥٨ .

(٦) استحارت : تحيَّرتْ ، أي تحيَّر الماء واجتمع . انظر : اللِّسان ، مادة (حير).

(٧) نهاؤه : جمع نِهى وهو الغدير ، انظر : اللِّسان ، مادة (نهي) .

(٨) ينجع : يفلح ، انظر : اللِّسان ، مادة (نجع) .

(٩) الرقراق : ترقق السراب ، لكلّ شيء له بصيصٌ وتلألؤ ، انظر : اللِّسان ، مادة (رقق).

(١٠) السبائب : جمع سبيبة وهي شقة من الثياب من أي نوع كان وقيل هي من الكتان ، انظر : اللِّسان ، مادة (سبب) .

(١١) تتريَّع : تجيء وتذهب ، تضطرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (ريع) .

(١٢) الأياديم : جمع إيدامه ، الأرض الصلبة من غير حجارة مأخوذة من أديم الأرض وهو وجهها ، انظر : اللِّسان ، مادة (أدم) .

(١٣) النشز : المرتفع من الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (نشز) .

(١٤) مقنع : غطاء ، وهو ما تغطي به المرأة رأسها ، انظر : اللِّسان ، مادة (قنع).

فقال ابن هُذيل[1] :

ومطَّـــردٍ[2] الأعـــلامِ خـــالٍ ســـرابُهُ على الأمعزِ[3] العـاري بـرودٌ تُنشَّـرُ
كـــأنَّ روابيـــه[4] إذا اتَّـــزرت بـــه رجالٌ ببيضِ الـرَيطِ ظُهـراً[5] تـأزَّروا

فالبيت الأوَّل نظر فيه إلى تشبيه السراب بالسبائب أو الثياب عند ذي الرُّمة ، والبيت الثاني نظر فيه إلى صفتي الإلباس ، والأقنعة عنده ، فشبَّه الروابي المغطاة بالسَّراب ، بالرِّجال المتزرين بالبياض .

وقد جدّد ابن هُذيل في تصوير السراب ، في أبياتٍ أُخرى له ، فشبهه بالثَّمل الذي يتمايلُ به الطريق والمحموم الذي لا يبرأُ من علته ، فقال[6] :

متوسّـــطٌ جـــوزَ الفـــلاةِ كأنَّـــهُ ثمـــلٌ يحيـــدُ بـــه الطريـــقُ المهيـــعُ[7]
وتـــرى بـــه جســـمَ السَّـــرابِ كأنَّمـــا نزلـــتْ بـــه الحمَّـــى فمـــا أن تُقلِـــعُ

وقد وصف الشُّعراء الأندلسيُّون كأسلافهم البدو حالة الخوف النفسيَّة التي تعتري مُقتحم المجاهلِ والفيافي ، فأسهبوا في وصفِ الوحشة والرَّهبة التي تملأ قلب السائر في الفلاة ، فيجسِّدُ له الخوف والظلام والسكون والأوهام كلَّ شيء ، فيسمعُ أصواتَ الوحشِ ، وعزيفَ الجنِّ ، ودويَّ الرياح ، ويتوَّهّمَ أنَّه يَرى مالا يُرى ، وقد علَّلَ الجاحظُ هذه الحالة النفسيَّة فقال : ((وإذا استوحش الإنسانُ تمثَّل له الشيءُ الصغيرُ في صورةِ الكبير ، وارتاب وتفرَّق ذهنُه

---

(١) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص١٧٨ .
(٢) مطّرد : تبع بعضه بعضاً ، انظر : اللّسان ، مادة (طرد) .
(٣) الأمعز : الأرض الحزنة الغليظةّ ذات الحجارة والحصى الصلب ، انظر : اللّسان ، مادة (معز) .
(٤) الروابي : المشرف من الرمل ، انظر : اللّسان ، مادة (ربا) .
(٥) الريط : جمع ريطة ، الملاء إذا كان قطعة واحدة ، انظر : اللّسان ، مادة (ريط) .
(٦) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص١٧٨ .
(٧) طريق مهيع : واضحٌ واسع بيّن ، وتهيَّع السراب انبسط على الأرض ، انظر : اللّسان ، مادة (هيع) .

وانتفضت أخلاطُه فرأى مالا يُرى ، وسمع مالا يُسمع ، وتوهَّم على الشيء اليسير الحقير أنَّه عظيمٌ جليل ، ثم جعلوا ما تصوَّر لهم من ذلك شعراً تناشدوه ، وأحاديثَ توارثوها ، فزادوا بذلك إيماناً ، ونشأ عليه النَّاشئ ، وربِّيَ به الطفل ، فصارَ أحدهم حين يتوسَّطُ الفيافي ، وتشتملُ عليه الغيطانُ في اللَّيالي الحنادس ، فعند أوَّل وحشةٍ وفزعة ، وعند صياحِ بومٍ ومجاوبةِ صدى ، وقد رأى كلّ باطلٍ وتوَّهم كل زور ...))[1].

كما أنَّ الأمرَ يخضعُ في الشعر لتفسيراتٍ متعددة ، فقد يكون في تجسيدِ هذا الخوف من الصحراءِ في الشِّعر ، وظهورِه على صور خيالاتٍ وأشباحٍ تتراءى لصاحبه ، إنَّما هو تجسيدٌ أوسع ، وأشمل ، وأعمّ ، لمعنى الخوف من المجهول في الحياة ، والتوجُّس من المستقبل ، والقلق ، والتوتّر الذي يعتري الإنسان ـ والشاعر على الأخصّ ـ ممَّا يخبئهُ القدر ، وتحملُه الأيام في رحمها من مفاجآت ، وقد ينطبقُ هذا التفسيرُ بخاصَّةٍ على الشعر الأندلسيّ الذي لم يعد مبدعُهُ بدويًّا مُغرقاً في البداوة كما كان الحال عليه عند أسلافه ، ممَّن عاشوا في الصحراء وكابدوا مشقَّة الحياةِ في مجاهلها ، كما أنَّه قد يكون في تصوير الرِّحلةِ البدويَّة وما يخوضُهُ الشاعر فيها من صعاب ومخاوف محاولةً من الشاعر الأندلسيّ لخلق عالمٍ متوَهَّم ، يستطيع فيه على ضعفِهِ الإنسانيّ أن يجتاز كلَّ المخاطِرِ والأهوال ، فيقدر بقوّة الخيال ، على مالا يقدرُ عليه في الحقيقة ، فالأمر في الشعر يتَّسعُ للتفسير ، وتكثر فيه الاحتمالات ، وأيًّا كان مغزى هذا التصوير أو التصوُّر للرحلةِ في الشعر الأندلسيّ ، فإنَّ المعجم البدويَّ المتوارثُ في وصفِ مجاهل الصحراء ظلَّ ممتدًّا في الشعر الأندلسيّ ، فقد حفل هذا الشعر بصورٍ بدويّةٍ للصحراء المهلكة ؛ فابن حمديس يأتي بوصفٍ شديد التركيز لمعنى الخوف الذي يكتنف السائر في الصحراء ، فهو

---

(١) الحيوان ، الجاحظ ، ٦/٢٥٠ .

فيها مرتابٌ يخشى على نفسه ، وقَطْعُ مجاهلها تكفيرٌ عن ذنبٍ عظيمٍ ارتكبه ، وهي صورةٌ ، أراد بها الشاعر وصف الحالة النفسيَّة التي تعتري المسافر في الفلاة ، يقول[1] :

ومشحونةٍ[2] بـالخوفِ لا أمـنَ عنـدها ... كأنَّك فيها حيـثُ سـرت مُريـبُ[3]

كأنَّـك في ذنـبٍ عظـيمٍ بقطعهـا ... فانـتَ إلى الـرحمن منـه تتـوبُ

أمَّا الأعمى التطيلي فركَّز في الصورة على وصف الظلامِ الحالك ، الذي يزيد مع الغبار ، فيخفي لمع السيوف ، بل يخفي الجنَّ التي تصعد لاستراق السمع عن النيازك ، وفي هذا مبالغة ظاهرة ، أراد بها تجسيد الظلمة التي تجعلُ السائر فيها يواجهُ الموت أعزلاً ، لأنَّه لا يواجهُ ما يُرى ، بل مجهولاً يتوهَّمهُ ، يقول التطيلي[4] :

وعَرْضِ فلاةٍ مـا تُعارِضُـها النَّـوى[5] ... ترى الموتَ فيها وهو أعزلُ[6] شـائكُ[7]

وجـنحُ ظـلامٍ لـو تُثـارُ عجاجـةٌ ... لما لَمَعَتْ فيهـا السـيوفُ البواتـكُ[8]

دُجًى لو سَرَت فيها الشـياطينُ ترتقـي ... إلى السِّرِّ لم تخلُـصْ إليهـا النيـازكُ[9]

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٣٩ .

(٢) مشحونة : مملوءة ، انظر : اللِّسان ، مادة (شحن) .

(٣) مريبُ : صاحب تهمة ، انظر : اللِّسان ، مادة (ريب) .

(٤) ديوان الأعمى التطيلي ، ص٨٩ .

(٥) النّوى : البعد ، انظر : اللِّسان ، مادة (نوي) .

(٦) أعزل : لا سلاح معه ، انظر : اللِّسان ، مادة (عزل) .

(٧) شائك : الشوكة السلاح ، وقيل حدّة السلاح ، انظر : اللِّسان ، مادة (شوك).

(٨) البواتك : القواطع ، انظر : اللِّسان ، مادة (بتك) ، والبيت فيه من قول بشار بن برد المشهور :

كـأنَّ مُثَـار النقـع فـوقَ رؤوسـنا ... وأسيافَنا ليـلٌ تـهـاوى كواكبُـهُ

ديوان بشار بن برد ، تحقيق : محمد العلوي ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨١م، ص٤٦.

(٩) فيه استلهام من الآية القرآنية : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الملك:٥).

وتأتي الصُّورة البدويَّة للمخافةِ بتفصيلٍ أكثر عند سعيد بن العاص أحد بني مروان ، برز فيها العنصرُ الصوتي ، فالصحراءُ المهلكةُ (بهماء) انغلق أو استعجم فيها الكلام ، والركب السائرون (يحبسون أنفاسهم) خوفاً من وحشٍ وغيره ، وقابل في الصورة بين هذا السكون المطبق ، وما خيَّلته هدأةُ الليل من سماعِ الأصداء أو أصواتِ البوم ، وهي أصواتٌ يتردّد سماعُها كثيراً في هذا المشهد البدويّ ؛ يقول سعيد بن العاص[1] :

ولربَّ مهلكةٍ قطعتُ بساطَها ... والليلُ مسودُّ الجوانبِ ادهمُ
بهماءُ[2] يُضحي الخوفُ يمنعُ ركبَها ... أن يُعلنوا الأصواتَ أو يتكلَّموا
وكأنما الأصداءُ[3] في جنباتِها ... تحتَ الظَّلامِ إذا صَدتْ تتلعثمُ[4]

ويتبعُ سعيد بن العاص ، الوصف السابق للصحراء ، بوصفٍ لاتساعها وامتدادها ، وهنا ينعطف بالصُّورة من معاني الخوفِ والمهابة ، فيقول[5] :

خرقٌ تظلُّ بها الرِّياحُ إذا جرت ... من حيثما انخرَقت تكلُّ وتسأمُ
حتى تلوذَ بما يعنُّ أمامَها ... ضعفاً كما لاذَت طيورٌ تُرْأمُ[6]

ويتردد صدى وقع الصوت في تصوير ابن حمديس للفلاة ، فيُسمَعُ سيرُ النَّاقةِ تضربُ الأرض بحافرها ، وعُواء ابن آوى الموحِش ، وأنينُ البومِ الضعيف فهي هولٌ (لا يُنيم) يقول[7] :

---

(١) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص١٧٥ .
(٢) بهماء : عجماء ، منغلق عنها الكلام ، انظر : اللِّسان ، مادة (بهم) .
(٣) الأصداء : جمع صدا ، وهو صوت الهام أو البوم إذا صاح ، انظر : اللِّسان ، مادة (صدي) .
(٤) تتلعثم : تبطئُ بالجواب ، انظر : اللِّسان ، مادة (لعثم) .
(٥) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص١٧٥ .
(٦) ترأم : ترأمّت عليه تعطّفت ، انظر : اللِّسان ، مادة (رأم) .
(٧) ديوان ابن حمديس ، ص٤٥١ .

كـــم فـــلاةٍ دونـــه يـــدفعُها سنبكُ[1] العـدو إلى خُـفِّ الرَّسـيم[2]
لابـــن آوى[3] وسْـــطَها وعوعـــةٌ تـــوحِشُ الإنـــسَ وللبـــومُ نئـــيم[4]
وعظـــيمُ الهـــولِ لـــولا آيـــةٌ لم يكـــن راكبُـــه إلاَّ أثـــيم
لم تـــزل عـــينيَ أو أُذني بـــه تُـــؤذنُ القلـــبَ بخـــوفٍ لا يُنـــيم

أمَّا ابن خفاجة فقد جلَّل مشهد الصحراء كلَّه بمشاعر الخوف ، وجعل الكائناتِ فيه تتجاوب مع الطبيعة وتتوحَّدُ معها ، فالسراب يرعد ، والخيل تتنهَّد ، والنجم يسهر رهبةً ، والريح تطلبُ العون ، يقول[5] :

ولا ســـيرَ إلاّ فـــوقَ ظهـــرِ تنوفـــةٍ يُراعُ سرابُ القـــاعِ فيهـــا فيرعَـــدُ[6]
وخرقٍ سحيقٍ يمـــلأُ الصـــدرَ وحشـــةً فرجعُ صهيلِ[7] الطِّرفِ[8] فيـــه تنهُّـــدُ
مهيبٍ يبيـــتُ الـــنَّجمُ يســـهرُ رهبـــةً بـــه وتكـــلُّ الـــرّيحُ فيـــه فترفُـــدُ[9]

وقد ضمَّن الشعراءُ الأندلسيُّون الصورة البدويَّة للصحراءِ المهلكة ، ما استقرَّ في أذهانِ العربِ وأوهامهم ، من تصوُّر الجنّ[10] والغـيلان[11]، فقـد كـان

---

(١) السنبك : طرف الحافر وجانباه ، انظر : اللِّسان ، مادة (سنبك) .
(٢) الرسيم : ضربٌ من سير الإبل المؤثّر في الأرض ، ورسمت الناقةُ أثرت في الأرض من شدة وطيها ، انظر : اللِّسان ، مادة (رسم) .
(٣) ابن آوى : دويبة ، ويقال في جمعه بنات أوى ، وبنات آوا يعوين ، انظر : اللِّسان ، مادة (أوا) .
(٤) النئيم : صوتُ البوم ، وهو صوت ضعيفٌ كالأنين ، انظر : اللِّسان ، مادة (نيم) .
(٥) ديوان ابن خفاجة ، ص١٩٤ .
(٦) يرعد : يضطرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (رعد) .
(٧) الصهيل : صوت الخيل ، انظر : اللِّسان ، مادة (صهل) .
(٨) الطِّرف : من الخيل الكريم العتيق ، انظر : اللِّسان ، مادة (طرف) .
(٩) ترفد : تستعين ، انظر : اللِّسان ، مادة (رفد) .
(١٠) الجنّ : نوعٌ من العالم ، سمُّوا بذلك لاجتنانهم عن الأبصار ، ولأنّهم استجنّوا من النـاس ، فـلا يرون ، انظر : اللِّسان ، مادة (جنن) .
(١١) الغول : اسمٌ لكل شـيء من الجنّ يُعرض للسفَّار ، ويتلّون فـي ضروب الصُّور والثياب ، ذكراً كان أو أنثى ، إلا أنَّ أكثر كلامهم على أنّه أنثى ، انظر : الحيوان ، ==

((بعضهم يدَّعي رؤية الغول ، أو قتلَها أو مرافقتها ، أو تزويجَها وآخر يزعمُ أنَّه رافق في مفازةٍ نمراً فكان يُطاعمه ويؤاكله)) [1].

ولكنَّهم في الشّعر الأندلسيّ لم يصلوا بتصوّر الجنّ والغول إلى هذه الدرجة العظيمةِ من المبالغة التي تجعلهم يرافقونها [2] ، أو يتزوجونها [3] ، أو يصرعونها [4] ، كما كان الأمرُ عليه في الشعر القديم .

-- الجاحظ ، ١٥٨/٦. والغول : السعلاة ، والتغوّل التلوّن ، كانت العرب تقول إنَّ الغيلان في الفلواتِ تراءى للناس فتغوَّل تغوُّلاً أي تلوَّن ، فتضلّهم عن الطريق وتهلكهم ، وقيل هي من مردة الجن والشياطين ، انظر : اللّسان ، مادة (غول).

(١) الحيوان ، الجاحظ ، ٢٥٢/٦ .

(٢) يقول عبيد بن أيوب :

فللـــه درُّ الغـــول أيّ رفيقـــةٍ	صـــاحب قفـــرٍ خـــائف متقتِّـــرِ
أرّلت بلحـنٍ بعـد لحـنٍ وأوقـدت	حـــوالَيَّ نيرانـــاً تلـــوح وتزهـــر
وأصبحت كالوحشي يتبـع مـا خـلا	ويتـــرك مـــأنوس الـــبلاد المـــدعثر

انظر : الحيوان ، الجاحظ ، ١٦٥/٦ .

ولابن ذي الزوائد :

إنّ امـــرؤ تـــابعني شـــيطانيه	آخيتـــه عمـــري وقـــد آخانيـــه
يشـــرب في قعـــبي وقـــد ســـقانيه	فالحمـــد لله الـــذي أعطانيـــه

انظر : الحيوان ، الجاحظ ، ١٨١/٢ .

(٣) يقول عبيد بن أيوب :

عـــلام تُـــرى ليلـــى تعـــذّبُ بـــالمنى	أخا قفـــراتٍ كـــان بالـــذلب يـــأنسُ
وصار خليـــلَ الغـــولِ بعـــد عـــداوةٍ	صـــفياً وربتـــهُ القفـــارُ البـــابسُ
فلـــيسَ بجـــنّيّ فيعـــرفُ لجلُـــه	ولا أنســـيّ تحتويـــه المجـــالسُ

انظر : الحيوان ، الجاحظ ، ٢٣٦/٦ .

(٤) يقول عبيد بن أيوب :

وقـــد لقيـــت مـــني الســـاعُ بليّـــةً	وقد لاقت الغـــيلانُ منّـــي الـــدواهيا

انظر : الحيوان ، الجاحظ ، ١٦٦/٦ .

فقد يكتفي الشاعر الأندلسيّ بالإشارة إلى ما كان معتَقداً في أوهام العرب بما يدلُّ به على معرفتِهِ وثقافته ، يقول ابن درّاج[1] :

فكم لجٍّ بحرٍ وضحضاحُ[2] قفرٍ أجولُ الفلا بين غولٍ وهامَةْ[3]

ويقول أيضاً من قصيدة أُخرى[4] :

فكيف بذي جهلٍ تعسَّفَ[5] مَجْهلاً يبرِّحُ[6] واقيهِ[7] ويحتم[8] حاتمِهِ[9]

فغالتهُ[10] في غَوْلِ[11] المهامِهِ غُولُهُ وهامَتْ[12] به في التُرهاتِ[13] هوائمُه

---

(١) ديوان ابن درّاج ، ص٢٠٥ .

(٢) الضحضاح : الماء القليل يكون في الغدير وغيره ، انظر : اللّسان ، مادة (ضحح).

(٣) الهامة : أعلى الرأس ، وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يُدرَك بثأره تصير هامَةً وطيراً ، فتزقوا عند قبره ، تقول : اسقوني ، اسقوني ، فإذا أدرك بثأره طار ، والهامة : الرأس ، واسم طائرٍ قيل هو الصدى ، وقيل هي البومة ، انظر : اللّسان ، مادة (هوم) .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص٢٠٥ .

(٥) التعسُّف : ركوب المفازةِ وقطعها بغير قصدٍ ولا هداية ، وهو السَّيرُ على غير علمٍ ولا أثر ، انظر : اللّسان ، مادة (عسف) .

(٦) يبرِّح : البارح ما مرَّ من الطير أو الوحش من يمينك إلى يسارك ، والعرب تتطير به ، انظر : اللّسان ، مادة (برح) .

(٧) الواقي : طائر الصُّرد ، بضم الصاد وفتح الراء ، انظر : اللّسان ، مادة (وقي) .

(٨) يحتم : يقضي ، انظر : اللّسان ، مادة (حتم) .

(٩) الحاتم : الغراب الأسود ، وسمّي حاتماً لأنه يحتم عندهم بالفراق إذا نعب ، أي يحكم ، وقد ذكر في الشعر الواقي ، والحاتم ، يقول المرقش السدوسي :

ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واقٍ وحاتِم

انظر : اللّسان ، مادة (حتم) .

(١٠) غالته : أهلكته واغتالته وأخذته من حيث لم يدر ، انظر : اللّسان ، مادة (غول).

(١١) الغَوْل : بُعد المفازة ، لأنه يغتال كلُّ من يمرُّ به ، انظر : اللّسان ، مادة (غول).

(١٢) هام : ذهب على وجهه ، وهامت به ، ذهبت به ، انظر : اللّسان ، مادة (هيم).

(١٣) الترّهات : الأباطيل ، انظر : اللّسان ، مادة (تره) .

وقد جاءت صورةُ الصحراءِ عند ابن درّاج موحشة (مجهل ، غَوْل ، المهمه ، الغُول) ، ومقتحمُها ليسَ فارساً صارماً قادراً على مواجهة الأهوال ، وقد كان ذلك لأن القصيدة في مدح المنصور منذر بن يحيى ، ووصْفِ انتصاره على من جاوره من ملوك النصارى ، وجاءت صورةُ الصحراءِ في سِياقِ نعتِ الملك المغلوب ، ولذا وصفه بذي جهلٍ ألقى به جهلُه في مهالكِ المنصورِ فلم ينجُ[1] .

أمّا صحراء ابن حمديس ، فعلى الرُّغم ممّا بها من الظلامِ والغول ، والصعاليك ، إلا أنّهُ متعسِّفٌ هذا الهول وحده ، قادرٌ على أن يخوضَ مهالكه ، يقول[2] :

أذلك خيرٌ أم تعسُّف[3] سبسبٍ[4] ... يعقّل[5] أخفافَ النجائبِ[6] عاتكُهْ[7]
وإن جَنَّ ليلٌ أقبلت نحو سَفرِه ... مجلّحَةٌ[8] أغوالُهُ وصعالكُهْ[9]
مهالِكُهُ بالفألِ تُسْمَى مفاوزاً ... وما الفوزُ إلاّ أن تُخَاض مهالكُهْ

---

(١) ولذا قال بعد البيت السابق (فغالته) :

أباحَ حمى الإسلامِ للشرك مغنماً ... لتقسم بين النّاهبين مغالمه

وفيها يمدح المنصور فيقول :

وبدّلت حكم الله من حكم غيّه ... فانفذَ حكم الله ما أنت حاكمه

ديوان ابن درّاج ، ص٢٩٥ ، ٢٩٨ .

(٢) ديوان ابن حمديس ، ص٣٤١ .

(٣) تعسّف : قطع المفازة بلا قصد ولا هداية ، انظر : اللّسان ، مادة (عسف) .

(٤) السبسب : القفر والمفازة ، انظر : اللّسان ، مادة (سبسب) .

(٥) يعقّل : الإبل المعقّلة المشدودة بالعقال ، انظر : اللّسان ، مادة (عقل).

(٦) النجائب : النجيبُ من الإبل القوي الخفيف السريع ، انظر : اللّسان ، مادة (نجب).

(٧) عاتكه : العاتك الرجلُ اللجوج الذي لا ينثني ولا ينتهي عن أمر ، انظر : اللّسان ، مادة (عتك) .

(٨) مجلّحةً : التجليح : الإقدام الشديد ، والتصميم في الأمر ، والمضيّ والمجلح الجريء ، انظر : اللّسان ، مادة (جلح) .

(٩) صعالكه : صعاليك العرب ذؤبانها ، انظر : اللّسان ، مادة (صعلك).

بمعطٍ غداةَ السَّيرِ ظهرَ حنيَّةٍ بنيتُ عليها الكورَ[1] فانهدَّ تامكُه[2]

وقد بدأ ابن حمديس القصيد شجيًّا حزيناً ، ذكر فيه رزايا العمر ، وعراك الزمن ، والخطوب ، والوهَن وسُليمى التي حال دونها المشيب[3] ، ثمَّ علاَ صوتُ الانتشاءِ شيئاً فشيئاً حين بدأ التغنّي بالشبابِ والصَّبوْة ، والخمر[4]، وتعانقت هذه المعاني مع دلالاتِ الجسارةِ والقوَّة في وصف المفازة وتمرّده على لومِ الصاحبة : (ألائمتي إنَّ التجمُّل جندلٌ)[5] ، وفيها[6]:

تريدين منّي جمع مالي ومَنعَهُ وهل ليَ بعدَ الموتِ ما أنا مالكُه

وتختلط الرؤى بالأصواتِ في صورة الفلاة ، ولذا لم يخلُ الشعرُ الأندلسيُّ من ذكرِ عزيف الجنّ وأصواتِهم التي يظنُّ المسافر في الصحراء الموحشةِ ليلاً أنَّه يسمعها ، وكثيراً ما ورد ذلك في الشعر القديم ، من مثل قول الأعشى[7]:

وبلدةٍ مثل ظهر التّرسِ موحشةٍ للجنّ بالليلِ في حافاتها زجلُ[8]

---

(١) الكور : رحل الناقة بأداته ، انظر : اللّسان ، مادة (كور) .

(٢) التامك : السنام المرتفع ، انظر : اللّسان ، مادة (تمك) .

(٣) ديوان ابن حمديس ، ص٣٤٠ ، ٣٤١ .

(٤) المصدر السَّابق ، ص٣٤١ .

(٥) المصدر السَّابق ، ص٣٤٢ .

وجندلٌ : حجارة ، انظر : اللّسان ، مادة (جندل) .

(٦) ديوان ابن حمديس ، ص٣٤٢ ، وفيه نظر إلى قول طرفة بن العبد :

ألا أيهذا اللائمي أحضرُ الوغى وأن أشهد اللذاتِ هل أنت مخلدي؟

وفيها :

أرى قبرَ نحّامٍ بخيلٍ بمالِهِ كقبرِ غويٍّ في البطالةِ مفسدِ

ديوان طرفة بن العبد ، ص٣٢ ، ٣٣ .

(٧) ديوان الأعشى ، ص٢٨٣ .

(٨) الزّجل : رفعُ الصوتِ الطرّب ، انظر : اللّسان ، مادة (زجل) .

أخذه ذو الرُّمةِ فقال[1] :

للجنّ بالليلِ في أرجائِها زجلٌ كما تناوحُ[2] يومَ الرِّيح عيشومُ[3]

وشبَّه ذو الرُّمة عزيف الجنّ بالغناء ، فقال[4] :

ورملٍ عزيفُ الجنّ[5] في عقداتِهِ[6] هزيزٌ[7] كتضرابِ المغنين بالطُّبلِ

فسمُّوا ما توهَّمُوا أنَّهم سمعوه من أصواتِ الجنِّ عزيفاً ، أو زجلاً ، أو شدواً ، وقد نظر الشَّاعر الأندلسيُّ الحسنُ بن حسَّانَ إلى ذي الرُّمة في التشبيهات السابقة فقال[8] :

فجبتُ بساطَ الأرضِ لم ألْ سامعاً به عند شدوِ الجن هتفاً[9] إلى هتفِ

كأنَّ حنينَ الريحِ في جنباتِهِ حنين المثاني والمثالثِ في العزفِ

---

(١) ديوان ذي الرُّمة ، ص١٤٤ .

(٢) تناوح الرياح : إذا تقابلت في المهب لأن بعضها يناوحُ بعضاً ، وسميت متناوحة ؛ لأنها تهب من جهاتٍ مختلفة ، والرياح إذا اشتدّ هبوبها يقال تناوحت ، انظر : اللّسان ، مادة (نوح) .

والتناوح : التجاوب ، انظر : شرح التبريزي على ديوان ذي الرُّمة ص١٤٤.

(٣) العيشوم : شجرٌ له صوتٌ مع الرّيح ، انظر : اللّسان ، مادة(عشم) .

(٤) ديوان ذو الرُّمة ، ص٥٩ .

(٥) عزفت الجنّ : صوّتت ولعبت ، والعرب تجعل العزيف أصوات الجن ، وفي حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما : كانت الجنّ تعزف الليل كلّه بين الصَّفا والمروة ، وعزيف الجن جرْس أصواتها ، وقيل هو صوتٌ يُسمع بالليل كالطبل ، وقيل هو صوت الرياح في الجو فتوهّمه أهل البادية صوتَ الجن ، انظر : اللّسان ، مادة (عزف).

(٦) عقداته : واحدتها (عقد) وهي المتراكم من الرّمل ، انظر : اللّسان ، مادة (عقد).

(٧) هزيزٌ : صوت الشيء تسمعه من بعيد مثل صوت الرَّحى والقدر ، انظر : شرح التبريزي على ديوان ذي الرُّمة ، ص٥٩ .

(٨) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص٢٧ .

(٩) الهتف : الصوت الجافي العالي الشديد ، الذي لا يُرى مصدره ، انظر : اللّسان ، مادة (هتف) .

فشبَّه صوت الجنّ بالشدو والعزف ، وجمع كما فعل ذو الرُّمة بين ذلك ودويَّ الرياح أو تناوحها ، وقد كان التركيز في الصورة ـ عند ذكر الجانُّ في وصف الصحراء غالباً ـ على الصَّوت ، لأنَّ الظلمة الشديدة والامتدادَ الواسعَ للفلاة ، يملأ النفس بالوحشة التي تجعل السائر في هذا الهول متوجِّساً خائفاً انتقَل قلبُه إلى أذنه ، فأصبح لا يسمع إلاّ الدويَّ والعزيف ، يقول حازم القرطاجنّي[١]:

هجرتُ نوميَ إذ هاجرتُ نحوكمُ ... حيث المقيلُ بديلٌ منه تهجيرُ

بكلّ بيداءَ أنفاسُ الرّياحِ بها ... خوافتٌ[٢] وعزيفُ الجنِّ مجهورُ[٣]

وسمّى الشعراءُ الأندلسيّون أصوات الجنّ لغطاً ، وهو اختلاطها واستبهامها ممَّا هو أدعى لشدّةِ الخوف ، يقول عباسُ بن ناصح[٤] :

ومجوبةٍ[٥] تنفي مخافتُها ... نومَ الفتى ذو المرّةِ[٦] النَّدبِ[٧]

للجنِّ في أجوازها[٨] لغطٌ[٩] ... باللّيلِ مثلَ تنازعِ الشُّرْبِ[١٠]

وترى بها جَوْنَ[١١] النَّعامِ إذا ... أشرفنَ كالمهنوءةِ[١٢] الجُرْبِ

---

(١) ديوان حازم القرطاجنّي ، ص٦٢.

(٢) الخفوت : ضعف الصوت ، انظر : اللّسان ، مادة (خفت) .

(٣) مجهور : عالي الصوت ، انظر : اللّسان ، مادة (جهر).

(٤) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص١٧٣.

(٥) مجوبة : جاب المفازة والظلمة قطعها ، انظر : اللّسان ، مادة (جوب).

(٦) ذو المرّة : أي صاحب المروءة ، والمروءة ، كامل الرجوليَّة ، انظر : اللّسان ، مادة (مرأ).

(٧) الندب : الخفيف في الحاجة السريع النجيب ، انظر : اللّسان ، مادة (ندب).

(٨) أجوازها : أوساطها ، انظر : اللّسان ، مادة (جوز).

(٩) اللغط : الأصوات المبهمة المختلطة التي لا تفهم ، انظر : اللّسان ، مادة (لغط).

(١٠) الشَّرْب : القوم يجتمعون على الشراب ، انظر : اللّسان ، مادة (شرب).

(١١) الجون : الأسود اليحمومي ، انظر : اللّسان ، مادة (جون).

(١٢) المهنوءة : الإبل المطلية بالقطران من الجرب ، انظر : اللّسان ، مادة (هنأ).

هو هنا ينظرُ إلى قول ذي الرُّمة[1] :

دوّيــــةٍ ودُجَـــا ليـــلٍ كأنّهمـــا يمٌّ تـــراطَنُ[2] في حافاتِـــهِ الـــرُّوم

فعبّاسُ بن ناصح أراد وصف شدَّةِ سواد الليلِ فجعل الظَّليم كالناقة المهنوءة لا تُتبيَّن ،ولم يصل بالتشبيه على ما فَعَل ذو الرُّمة الذي ذكر الدَّوية والدُّجا ، وشبههما باليمّ فـ ((اجتمعت فلاةٌ وظلمة ليلٍ فأنت تسمع فيها دويًّا))[3] وشبّه ذو الرُّمة الأصوات المبهمة في الليل بتراطن العجم ، بينما نسبها ابن ناصح للجنّ وشبهها بتنازع الندامى للشراب .

وقد استلهم ابن حمديس ، صورةَ الجنِّ المتخيَّلةَ في الصحراء ، وشبَّه بها الجنودَ في المعركة ، وسمَّاهم جنَّان مهمه ، وأراد بذلك وصفهم بالشدَّة والقوة ، وما يوقعونه في قلوب أعدائهم من رهبة ، فقال[4] :

وبيدٍ ترى ذات السنابك[5] في السُّـرى مسـلَّمةً فيهـا لـذاتِ المناسـمِ[6]

بـهـا من قبيل الإنس جنَّـانُ مهمـه صـعاليكُ إلاّ مـن قنـا وصـوارمِ

وكلُّ أضـاةٍ[7] لا مَغَـاص للهـذمِ[8] على الذِّمْرِ[9] فيها يومَ طعنِ الحيـازمِ[10]

---

(١) ديوان ذي الرُّمة ، ص١٤٥ .

(٢) تراطن : التراطن كلامٌ لا يفهمه الجمهور ، ورطن العجميّ ، تكلَّم بلغته ، انظر : اللِّسان ، مادة (رطن) .

(٣) شرح التبريزي على ديوان ذي الرُّمة ، ص١٤٥ .

(٤) ديوان ابن حمديس ، ص٤٤٥ .

(٥) السنابك : جمع سنبك وهو طرف الحافر وجانباه ، انظر : اللِّسان ، مادة (سنبك).

(٦) المناسم : جمع منسم من النسيم وهو الريح ، انظر : اللِّسان ، مادة (نسم).

(٧) الأضاة : الدرع ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ١٤/١ ، مادة (أضا).

(٨) اللِّهذم : السيف الحاد القاطع ، انظر : اللِّسان ، مادة (لهذم).

(٩) الذِّمر : الشجاع الشديد ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذمر).

(١٠) الحيازم : ضلوع الفؤاد ، انظر : اللِّسان ، مادة (حزم).

ومن المشاهد البدويَّة المستقرة في الأذهان ، للرِّحلةِ في الصحراء ـ والتي عَني الشعراءُ بوصفها قدماءُ وأندلسيُّون ـ مشهد الرَّكب المرتحلين ، والتفتوا فيه إلى صورة هذا الرَّكب وهم يشقّون عبابَ الصحراء ، وقد تطاوَحت رؤوسُهم من عناءِ السير وطول السُّرى حتّى أضناهم التّعب ، فتعطّفوا فوق رواحلهم ، تعطُّف السكارى أو الأهلَّة ، أو ما عنَّ للشعراء أن يشبّهوا به ، في إبرازهم لهذه الصفة أو الملمح الدقيق ، فقد شبّه الشاعر الأندلسيُّ الحسن بن حسان هذا الرَّكب الذي لم يبق منه سوى أشلاءَ فرَّقتها الفيافي ، بالأهلَّةِ التي لم يبق منها ما يُرى آخرَ الشهر ، فقال[1] :

وركبٍ كالأهلَّةِ عن محاقٍ[2] على أمثالها سيٍّ[3] بسيّ
تخالُهم الفيافي والبراري لطول السَّير أشلاءَ[4] المطيّ

وشبَّه الشعراء الأندلسيُّون الرَّكب الذين غلبهم النُّعاس لطول السُّرى بالسكارى الذين انثنوا فوق عيسهم فطأطأوا رؤوسهم خاضعين ، ونظروا في هذا التشبيه إلى الصُّورة البدويّة عند ذي الرُّمة في قوله[5] :

إذا انجابت الظلماءُ أضحت رؤوسُهُم عليهنّ من طولِ الكرى وهي ظُلَّعُ[6]
يقيمونها بالجَهدِ حالاً وتنتحي بها نشوةُ الإدلاجِ أُخرى فتركعُ

وقول ذي الرُّمة[7] :

سقته الكرى كأسَ النُّعاس ورأسُهُ لدينِ الكرى من آخرِ الليلِ ساجدُ

---

(١) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص١٧٤ .
(٢) المحاق : آخر الشهر ، إذا امَّحق الهلال فلم يُرَ ، انظر : اللّسان ، مادة (محق) .
(٣) سيّ : مثل ، انظر : اللّسان ، مادة (سوا) .
(٤) الأشلاء : الأعضاء بعد البلى والتفرُّق ، انظر : اللّسان ، مادة (شلا) .
(٥) ديوان ذي الرُّمة ، ص٢٥٩ .
(٦) الظُّلَّع : من الضَّلعِ وهو المَيْل ، انظر : اللّسان ، مادة (ظلع) .
(٧) ديوان ذي الرُّمة ، ص٣٥٨ .

فمن الشعراءِ الأندلسيين من نقل الصُّورة السابقة ، يقول يوسُف بن هارون الرَّمادي[1] :

ترى الرَّكبَ فيها من سُرًى فوقَ عيسِهم ... لغيرِ إلهٍ راكعين وسُجَّدا

ومنهم من استلهمها ، مثل ابن الزَّقَّاق الذي يقول[2] :

وفتيانِ مصاليتٍ كرامٍ ... مدرَّبةٍ على خوضِ الظلامِ

وقد خفقَ النُّعاسُ بهم فمالوا ... به ميلَ النَّزيفِ من المُدامِ

ومثل الرُّصافي البلنسي ، الذي حَوَّر قليلاً في صورةِ السُّجودِ عند ذي الرُّمة ، فشبَّه انحناء الرَّكب على الرواحل بانحناء المقبِّلِ على اليد ، وسريان النوم بسريان الخمر ، يقول[3] :

ومجدِّين للسُّرى قد تعاطَوا ... غفواتِ الكرى بغيرِ كؤوسِ

جنحُوا وانثنُوا على العيسِ حتَّى ... خلتُهم يلثمونَ أيدي العيسِ

نبذوا الغمضَ وهو حُلْوٌ إلى أن ... وجدُوه سُلافةً[4] في الرُّءوس

ويأتي ابن خفاجةَ بصورةٍ للرَّكب الذين صدعوا ظلام الليلِ تجاوز فيها وصفَ النُّعاس الذي يغشاهم والتشبيه بالسُّكر إلى وصف عزمهم الذي اجتاز بهم ظلمةَ الليل ، ومخافة الصحراء ، فكانوا فيها نجوماً تسطع ، يقول[5] :

وأصدعُ أحشاءَ الظلامِ بفتيةٍ ... تُواكبُ منهم أنجمُ الليلِ أنجمَا

أذعتُ بهم سرَّ الصباح وإنَّما ... سررتُ بهم ليلَ السُّرى فتبسَّما

ويضيفُ ابن خفاجةَ إلى الصُّورةِ معنى المجد الذي جعل البيد تحفظُهم وتضنُّ بهم لأنَّهم سرٌّ من أسراره ، يقول[6] :

---

(١) التشبيهات : ابن الكتّاني ، ص١٧٦ .

(٢) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص٢٥٥ .

(٣) ديوان الرُّصافي البلنسي ، ص١٠٢ .

(٤) السلافة : أفضل الخمر وأخلصهَا ، انظر : اللِّسان ، مادة (سلف) .

(٥) ديوان ابن خفاجة ، ص١٧٢ .

(٦) المصدر السابق ، ص١٧٣ .

وقد كَتَمَتْهم أضلعُ البيدِ ضِنَّةً ولم يكُ سرُّ المجدِ إلاّ لِيُكْتَمَا
فبتنا وبحرُ الليل ملتطمٌ بنا ترى العيسَ غرقى والكواكبَ عُوَّما
وقد نَفَرت[1] منها قسيًّا يدُ السُّرى وفوَّق[2] منها فوقَها المجدُ أسهما

وتشبيه الليل بالبحر الملتطم ، استمده من امرئ القيس (وليلٍ كموجِ البحر)[3].

فابن خفاجة جعل الليل بحراً مثل امرئ القيس ، ثمَّ أضافَ إضافاتٍ نقلت الصُّورةَ إلى حالةٍ أُخرى غير الحالةِ التي عند امرئ القيس ، فهو لمَّا جعل الليل بحراً ، جعل العيس فيه غرقى ، والكواكبَ عُوَّماً ، فهنا أكمل الصُّورة وأشبعها في وصفِ شدَّةِ الظلام المطبقِ على هذه الصحراء ، وابن خفاجة نقل صورة السَّماءِ بنجومها إلى الصحراء في تصويرِ الرَّكب ، كما فَعل قبله ذو الرُّمة حين قال[4] :

ودويَّةٌ[5] مثلُ السماءِ اعتسفتُها وقد صبغَ الليلُ الحصى بسوادِ

وشبَّه ذو الرُّمة الرَّكب بالنجوم ، فقال[6] :

ترى ركبَها يهوون في مُدلهمَّةٍ رَهاءٍ[7] كمجرى الشمسِ[8] دُرمٍ[9] حدورُها[10]

وابن خفاجة شبَّه المرتحلين بسرِّ المجد الذي يُكتم ، وعادَ فجعلَ الرَّكب

---

(١) نفرت : فرَّقت ، انظر : اللِّسان ، مادة (نفر) .
(٢) الفُوق من السهم موضع الوَتَر منه ، انظر : اللِّسان ، مادة (فوق).
(٣) ديوان امرئ القيس ، ص٤٨ .
(٤) ديوان ذو الرُّمة ، ص٢٤٢ .
(٥) الدويّة : الفلاة الواسعة . انظر : اللِّسان ، مادة (دوا).
(٦) ديوان ذو الرُّمة ، ص٨٨ .
(٧) رَهاء : واسعة ، انظر : اللِّسان ، مادة (رها).
(٨) مجرى الشَّمس : مسيرها من المشرق إلى المغرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (جرا).
(٩) دُرم : مستوية ، انظر : اللِّسان ، مادة (درم).
(١٠) حدورها : الحدر ، النشز من الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (حدر).

أسهماً للمجد رمى بها ، ثم عاد بعد ذلك بأبياتٍ فمَطَل الصُّورة ومدَّها ، وقال[1]:

ومن عجبٍ أني أرى القوسَ مُنحنَى ... به في يدِ البيداءِ والسَّهم مُرتَمى

وقد يكون ابن زُمْرُكْ نظر إلى تشبيه ابن خفاجة للرَّكب بالسهام التي تطلقها أيدي البيد ـ وهو متأخَر عنه ـ فقال[2] :

وعلى مُتطي الرَّواحِلِ ميلٌ ... قَدَحُ النَّوم بينهم قد حُثَّا

فسهامٌ عَلَى سَوَاهمَ[3] تُحدى ... عبثَ السَّيرُ في بُرَاهُنَّ عَبْثا

صقلُوا بالسُّرى وجوهَ الأماني ... إذْ أطالوا بهَا النَّواصيَ شُعثَا

يستحقُّ النداءَ : أهلاً وسهلاً ... من يكنْ يركبُ المفازَ الوعْثَا[4]

وابن خفاجةَ وصفَ الفتوَّ المدلجين مَعَه ، ومدحهم بالعزم ، وجعلهم سرّ المجد ، أمَّا ابن شُهيد ، فقد وصف إدلاجهم فقال[5] :

وفتوٍّ سروا وقد عكفَ اللَّيـ ... ـلُ وأرخى مغدودنَ[6] الأطناب

ولم يترك لهم بعد ذلك شيئاً من المدح ، وإنما افتخر بنفسه بطريقةٍ أقرب إلى العجب والخيلاء فالنجوم التي هدتهم (أشرقت للعيون من آدابي)[7] والبروق التي لمعت (أوقدت في سمائها من شهابي)[8] وحين يأتي ذكره يتوه الركب من الإعجاب (فتاهوا من حديثي في عُرْضِ أمرٍ عُجَاب)[9].

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص١٧٣ .

(٢) ديوان ابن زُمْرُكْ ، ص٣٣٨ .

(٣) سواهم : ذابلون متغيروا اللون ، انظر : اللِّسان ، مادة (سهم) .

(٤) الوَعث : ما غابت فيه الحوافر والأخفاف من الرَّمل الدقاق ، ووعثاء السفر ، مشقته وشدته ، انظر : اللِّسان ، مادة (وعث) .

(٥) ديوان ابن شُهيد ، ص٥٧ .

(٦) مغدودن : كثير ، ملتف ، طويل ، انظر : اللِّسان ، مادة (غدن) .

(٧،٨،٩) ديوان ابن شُهيد ، ص٥٧ .

وهكذا اتخذ الشعراءُ الأندلسيُّون من صور الرحلة البدويّة المتوارثة طريقة في الشعر ، وقالباً طبعوه بطابعهم ، وحمَّلوا صوره من ذواتهم ، ولم تعد الرّحلةُ بكلِّ ما فيها مقتصرةً على شعراءَ بُداةَ عاشوا وحشةَ الصحراء ، وقطعوا قفارها ، وإنَّما امتدَّت صورُها الشعريَّة بكل ما فيها من دلالاتٍ وإيحاءاتٍ للشعر الأندلسيّ فأسهب شعراؤهم في استلهامها ، واسترفادِ مشاهدها ، في إبداعهم .

* * *